

العلاقات الإسلامية المسيحية من خلال الرسائل الدبلوماسية بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر

علي دحروج

تمهيد:

شكّلت العلاقات الإسلامية المسيحية محور اهتمام كبير لدى كثير من الباحثين والدارسين على حدّ سواء، وذلك نظراً للتطور الذي رافقها منذ بزغت شمس الإسلام من ناحية، ومن ناحية أخرى للتنوّع والتعدّد اللذين صبغا هذه العلاقات على امتداد التاريخ الإسلامي، وما تخلّل ذلك من فتوحات وحروب ومعاهدات وتبادل تجاري وثقافي، فضلاً عن المناظرات الدينية التي عرفت نمواً كبيراً نتج عنه كمّ هائل من الكتب والرسائل، بعضها قد طُبِع ونشر، وبعضها الآخر ما يزال مخطوطاً أو طواه الزمن بفعل الحدثان.

وإذا كانت رسائل النبي محمد (ﷺ) إلى النجاشي والمقوقس وهرقل وكسرى تعتبر البداية الفعلية لما يمكن تسميته بلغة السياسة المعاصرة «العلاقات الدبلوماسية» بين الأمم والشعوب، إلّا أن هذه الرسائل ارتدت طابع الدعوة إلى الله والطلب إليهم للدخول في الإسلام.

وبعدما اتسعت رقعة العالم الإسلامي وتعاقت الدول الإسلامية شرقاً وغرباً، نمت العلاقات الإسلامية المسيحية وازدهرت، وشهدت تطوراً ملحوظاً على المستوى الدبلوماسي، وبخاصة تلك التي كانت قائمة بين بيزنطة والمسلمين وما نتج عنها من سفارات متبادلة، وكذلك بين الأندلس وجوارها من دول أوروبا، ثم بين الشمال الإفريقي والممالك الأوروبية بُعيد سقوط الأندلس بيد

الفرنجة .

ولقد أثار اهتمامي ما نشره الأستاذ محمد عبد الله عنان⁽¹⁾ في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد⁽²⁾ من وثائق ورسائل هامة تلقي الضوء على جزء من العلاقات الإسلامية المسيحية خلال حقبة زمنية محددة مليئة بالاضطرابات السياسية، وفي منطقة جغرافية معينة من العالم الإسلامي. لذا، رأيت من الفائدة أن أعيد نشرها مع تعليقات عليها وتوضيح لمضامينها، ودراسة للجوانب الأخرى التي تتعلق بطبيعة هذه الرسائل، سواء من الناحية السياسية أم من ناحية العلاقات التي كانت قائمة آنذاك بين ملوك المسلمين وملوك الفرنجة.

ولقد قمت بدراسة هذه النصوص - الوثائق وقسمتها إلى مجموعات ثلاث، تبعاً للتسلسل الزمني الذي تمت فيه هذه الرسائل، وليس كما نشرها الأستاذ محمد عبد الله عنان، فضلاً عن طبيعة الموضوعات التي عالجتها هذه الرسائل. وهذه المجموعات هي:

(1) محمد عبد الله عنان باحث مصري كبير وعالم جليل، له الكثير من المؤلفات بين تحقيق وتأليف وترجمة، فضلاً عن العشرات من الأبحاث والمقالات المنشورة، وقد قام بنشر مجموعة من الرسائل الدبلوماسية في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمرديد، سأشير لاحقاً إلى توثيقها في المجلة.

(2) تأسس المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمرديد عام 1950، وقد افتتحه صبيحة يوم السبت 11 نوفمبر من العام نفسه عميد الأدب العربي د. طه حسين الذي كان يومها وزيراً للمعارف المصرية. وقد قام المعهد بدور كبير في تعميق العلاقات العربية الأوروبية، كما ساهم في نشر الثقافة الإسلامية والتعريف بحضارة المسلمين، فأنشأ لهذه الغاية مجلة دراسات إسلامية، صدر عددها الأول عام 1372هـ / 1953. وكان مدير المعهد آنذاك د. علي سامي النشار رئيساً لتحرير المجلة. وقد تعاقب عليها عدد من العلماء الأفاضل، منهم: د. حسين مؤنس، د. صلاح فضل، د. عبد العزيز سالم، د. أحمد هيكمل، والأستاذ محمد عبد الله عنان وغيرهم. ويقوم المعهد المصري للدراسات الإسلامية بدور المستشارية الثقافية لجمهورية مصر العربية حيث يتولى مدير المعهد منصب الملحق الثقافي فضلاً عن ترؤسه لإدارة تحرير المجلة. ولا تزال المجلة تصدر سنوياً حتى يومنا هذا.

1 - الرسائل المرسلة من ملوك غرناطة إلى ملوك أراغون في القرن الثالث عشر⁽¹⁾.

2 - رسائل من أمراء المغرب الأوسط إلى الإمبراطور شارلكان في أوائل القرن السادس عشر⁽²⁾.

3 - رسائل من البلاط المغربي إلى البلاط الإسباني في أوائل القرن السابع عشر⁽³⁾.

إن الناظر في لغة هذه الرسائل ومضمونها يستوقفه أمران أساسيان:

الأول: معاهدات الصلح التي كانت تبرم بين المسلمين والمسيحيين في تلك الحقبة، سيما أثناء فترة الضعف والتقهر الذي أصاب الممالك الإسلامية في الأندلس وشمال أفريقيا، نتيجة الصراعات الدامية فيما بينها من جهة، وما خلفته الحروب الصليبية في العصور الوسطى من استرداد للأندلس من جهة ثانية.

الثاني: طلب النجدة الذي كان يلجأ إليه بعض أمراء الشمال الأفريقي لمواجهة ما يتهددهم من أخطار نتيجة الصراع على السلطة. فكان البعض يستنجد بالحكام الفرنجة طالبين العون والمدد، مما ساعد في الانهيار والتقهر وزيادة الهيمنة الأوروبية على الساحة الإسلامية.

(1) نشرت في مجلة المعهد المصري عام 80/79، العدد العشرون، ص 103 - 112.

(2) نشرت في مجلة المعهد المصري عام 78/76، العدد التاسع عشر، ص 5 - 20.

(3) نشرت في مجلة المعهد المصري عام 75/74، العدد الثامن عشر، ص 5 - 16. والملاحظ

في هذه الرسائل أن الأستاذ محمد عبد الله عنان نشرها بحرفيتها وأسلوبها الذي صيغت به مع ما فيه من أخطاء نحوية وكلمات مبهمّة دون أن يصححها أو يشرحها. كما أنه لم يعرف بأحد من الأعلام الذين وردت أسماؤهم ولا بالأماكن المذكورة فيها. وقد أشار الأستاذ عنان إلى أنه عثر على هذه المجموعة الكبيرة من الرسائل في محفوظات التاج الأرغوني ببرشلونة Archive de la corona de Aragon. وقد عملنا جاهدين لاستدراك هذا النقص بقدر ما تيسّر لنا من المادة العلمية.

وسوف نلقي الضوء على هذه الرسائل من خلال نشر النصّ محققاً، ثم دراسته والتعليق عليه.

المجموعة الأولى: وهي أربع رسائل بعث بها ملوك غرناطة⁽¹⁾ إلى ملوك أراغون⁽²⁾ بين سنتي 721 و738هـ/ 1321 و1337م، وذلك في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر⁽³⁾ (- 725هـ/ 1324م) وولده السلطان يوسف أبي الحجاج⁽⁴⁾ (- 755هـ/ 1354م).

نصوص الرسائل

الرسالة الأولى: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا

(1) Granada مدينة في جنوب أسبانيا على رافد الوادي الكبير. سكانها أكثر من 250 ألف نسمة اليوم. كانت عاصمة بني زيري من ملوك الطوائف. ثم عاصمة بني الأحمر حتى استردها الفرنجة. وتعتبر مركزاً حضارياً وسياحياً، وفيها أهم آثار الأندلس وروائعها كقصر الحمراء؛ الروض المعطار 45، بروفنسال 23، الترجمة 29.

(2) Aragon وتعرف بهذا الأسم عند المؤرخين العرب، وكذلك باسم بلاد أرغن وأرغن أو رغوثة أو الثغر الأعلى. أنظر: تاريخ الأندلس، ليوسف شباخ، ترجمة محمد عبد الله عنان، مطبعة الخانجي، القاهرة 1377هـ/ 1958، ص 9؛ بروفنسال 27؛ الروض المعطار 27.

(3) هو إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر بن الأحمر، أبو الوليد السلطان الغالب بالله. ولد عام 677هـ/ 1279م وتوفي عام 725هـ/ 1325م. لقّب بأمير المؤمنين. وهو خامس ملوك دولة بني نصر ابن الأحمر في الأندلس. كان والي مالقة وسبّته ثم ثار على ملك غرناطة الضعيف وبويع فيها عام 713هـ. وكانت بينه وبين بعض ملوك الفرنجة معارك طاحنة انتصر فيها. كان حازماً مقداماً كثير الحياء. مات غيلةً بطعنة خنجر في غرناطة؛ قارن عنه: الإحاطة في أخبار غرناطة 1/ 221، النجوم الزاهرة 9/ 250، الدرر الكامنة 1/ 375.

(4) هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل، أبو الحجاج الأنصاري الخزرجي النصري. ولد عام 718هـ/ 1318م وتوفي عام 755هـ/ 1354م. سابع ملوك بني نصر ابن الأحمر في الأندلس. بويع بعد مقتل أخيه محمد وكان شاباً. قام بأعباء الملك وياشر بعض الحروب بنفسه. قاتله الأسبان وثبت لهم مدة. وفي أعوامه الأخيرة نعم بالسلم. مات طعناً وهو قائم يصلي في المسجد الكبير بغرناطة؛ الدرر الكامنة 4/ 450، اللوحة البدرية 89.

محمد نبيّه الكريم، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

الملك المعظم الشهير، الأرفع، المشكور، الأوفى، الخطير، الكبير، الأوّد، الأخلص، الأصفى دون جيمي⁽¹⁾، صاحب بلنسية⁽²⁾ وأراغون وسردانية⁽³⁾ وقرسقة⁽⁴⁾، وقمّط برشلونة⁽⁵⁾، أعزّه الله بتقواه، ويسّره إلى ما يحبه الربّ جلّ جلاله ويرضاه، شاكر خلوصه وصفائه⁽⁶⁾ المبني على ثبوت عهده وصدق وفائه⁽⁷⁾، عثمان بن إدريس بن عبد الله بن عبد الحق⁽⁸⁾. وبعد حمد

(1) هو السلطان دون جايم الثاني ابن الملك جايم الأول. آلت إليه السلطة بعد وفاة أخيه ألفونسو الثالث عام 1291م، واستمر حكمه طويلاً، وكان عهده عهد إصلاح واستقرار. أنظر: نهاية الأندلس، محمد عبد الله عنان، ص 134 - 138.

(2) Valencia مدينة كبيرة ومرفأ هام في أسبانيا اليوم، تقع على خليج بلنسية على المتوسط. سكانها أكثر من مليون نسمة اليوم. كانت إحدى عواصم الحضارة الإسلامية في الأندلس، وعاصمة بني عامر من ملوك الطوائف. فيها آثار إسلامية وقوطية. أخذها الفرنجة عام 1238م؛ الروض المعطار 97، نفح الطيب 175/1، الترجمة 59، ياقوت، مادة (بلنسية).

(3) Serdegna جزيرة إيطالية في البحر التيراني، يفصلها مضيق عن كورسيكا، سكانها أكثر من مليون ونصف. احتلها العرب عام 710؛ الروض المعطار 314، نزهة المشتاق 180.

(4) جزيرة فرنسية في المتوسط شمالي سردينية. عاصمتها أجاكسيو، غزاها العرب، فيها بعض الآثار، ويقال لها كورسيكا وقرشقة أيضاً؛ الروض المعطار 455، الترجمة 77.

(5) مرفأ في أسبانيا على المتوسط. سكانها أكثر من 4 ملايين نسمة. عاصمة إقليم كتالونيا، وتعتبر مركزاً صناعياً هاماً. فيها آثار ومتاحف غنية. الروض المعطار 86، بروفنسال 42، الترجمة 53، نزهة المشتاق 231.

(6) في الأصل المطبوع: صفاية.

(7) في الأصل المطبوع: وفاة.

(8) هو عثمان بن إدريس أبي العلاء ابن عبد الله بن عبد الحق المريني، أبو سعيد. ولد عام 642هـ/1244م وتوفي عام 730هـ/1330م، أمير مجاهد بطل، من بني مرين أصحاب الدولة المرينية بالمغرب. أقام أيام السلطان يوسف بن يعقوب بالأندلس موالياً لبني الأحمر. وكانت له مشاهد كثيرة، وتوفي بالحرب، الاستقصا 46/2؛ والدرر الكامنة 50/3، ونفح الطيب 101/5، والوافي بالوفيات 446/19.

الله رب العالمين، المنزه عن الصاحبة والولد والشريك والمعين⁽¹⁾، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد سيد الخلق وخاتم النبيين، وعلى جميع أنبياء الله والمرسلين، والرضى عن الصحابة الأكرمين، وعن التابعين. .⁽²⁾ إلى يوم الدين.

فإني كتبت لك أيها الملك المعظم من حضرة غرناطة حرسها الله، ولا جديد ييمن الله سبحانه إلا ما يتجدد إنعامه عز وجل وإحسانه، والحمد لله. وجانبك سجل على الدوائر⁽³⁾ والأنصار، وواجبك مكمل في كل الأحوال، والثناء على جميل ولائك وصدق وفائك⁽⁴⁾ مردد في كل مقام ومقال. وإلى هذا فإن كتابك المرقع وصل إلي مع رسولك سيمون دي خوه في شأن عقد للصالح بين مولانا السلطان أيده الله ونصره وبينك. وقد تخلصت العقود على أكمل وجوه الإحسان، وحصل المقصود في تأمين البلاد والعباد، وكف الأضرار. وأنا على شكر وذك وحفظ عهدك حسبما يوجبه الاعتقاد الخالص وإعلان الأسرار. وقد بلغني ما وجهت لي مع رسولك سيمون، وجددت على ذلك شكر وداذك، وعلمت صحة خلوصك واعتقادك؛ وظني فيك أيها الملك المعظم أن تفعل ذلك، وغرضي يحقق أن ينقضي ما طالت حياتك هنالك. فوفائي معلوم، وقصدك في المودة مفهوم، ولله الملك سري لا يساويه واحد من ملوك النصارى شرقاً وغرباً. ولك الوفاء الذي شهد عند جميع الناس بعداً وقرباً. وقد قلت لسيمون في سرك كله ما يقرره بين يديك ويلقيه إليك، فصديق ما يقول، فعنده شرح ما عندي وتفصيله. والله يعزك بتقواه وييسرك

(1) يلاحظ هنا أن السلطان في رسالته يؤكد على وحدانية الله تعالى وتنزهه عن كل شريك يخل بعقيدة التوحيد من أبوة أو بنوة، وهو ما يعتقده النصارى في التثليث. ولكأن السلطان يحاول بذلك دعوة ملك أراغون المسيحي إلى تطهير عقيدته من مظاهر الشرك ودعوته إلى توحيد الله تعالى.

(2) يبدو أن الناشر قد أسقط بعض الألفاظ، أو أنه يوجد سقط في الأصل المخطوط، حيث لا يظهر من خلال الصورة.

(3) في الأصل المطبوع: الدواير.

(4) في الأصل المطبوع: وفايك.

إلى ما يحبه الله ويرضيك. والسلام يراجع سلامك كثيراً أثيراً. كتب في الثامن عشر لشهر ربيع عام واحد وعشرين وسبعماية».

العنوان:

الملك المعظم الأجل الأرفع الأوفى المشكور

الشهير الخطير الأرضى الأخلص الأصفى

دون جيمي صاحب بلنسية وأراغون وسردانية

وقرسقة وقمط برشلونة، أعزه الله بتقواه

ويسره إلى ما يحبه الرب جلّ جلاله.

* * *

الرسالة الثانية: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً».

السلطان الأجل، المرفّع، المكرم، المبرور، المشكور، الأوفى، الأخلص، دون جيمي سلطان بلنسية وقمط برشلونة⁽¹⁾، وصاحب قرسقة⁽²⁾، وصل الله عزته بتقواه وأسعده بطاعة الله ورضاه، مكرم مملكته، وشاكر ما أظهر من مودته، المحافظ على عهده، ورعى صحبته، الأمير أبو⁽³⁾ عبد الله محمد⁽⁴⁾ بن

(1) في الأصل المطبوع: برجلونة.

(2) في الأصل المطبوع: قرسقة، وقد ذكرته الكتب باسم كورسيكا وقرسقة أيضاً.

(3) «أبو» ناقصة من الأصل، وأبو عبد الله كنية الأمير محمد وليس اسمه عبد الله كما أشارت إليه كتب التراجم.

(4) هو محمد بن إسماعيل بن فرج، من بني نصر بن الأحمر، أبو عبد الله. ولد عام 715هـ/ 1315م وتوفي عام 733هـ/ 1333م. سادس ملوك بني الأحمر في الأندلس. حكم بعد مقتل أبيه وهو صغير فعزل ثم قوي فاسترد العرش، وكان شجاعاً محباً للأدب. قاتل الفرنج ومات غيلة؛ لللمحة البدرية 77، والدرر الكامنة 390/3.

أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر.

أما بعد، فإننا كتبناه إليكم من حمراء⁽¹⁾ غرناطة حرسها الله، وليس بفضل الله سبحانه إلاّ الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيراً. وجانبكم مبرور، وفضلكم في الصحة معلوم مشكور، ومحلكم بين ملوك النصرانية المحل المعروف المشهور. وإلى هذا فقد وصل كتابكم المكرم على يدي رسولكم إلينا جوان أنريق، وقد حضر بين يدينا ورفيقه جقمى من قلعة أيوب⁽²⁾، وقررا عندنا من محبتكم في صحبتنا، وقصدكم الجميل، في حفظ عهد مولانا الوالد، قدّس الله روحه، ما شكرناه لكم، وعلمنا أنه الذي يليق بمثلكم من الملوك الأوفياء. ووصلنا المكتوب الذي وجهتم بتجديد الصلح الذي كان بين والدنا وبينكم لخمسة أعوام من كتابته. وقد جددناه نحن على حسبما اقتضاه مكتوبكم. والعقد بذلك يصلحكم صحة هذا. ونحن على أولنا في حفظ عهدكم، والاغتباط لصحبتكم، والوفاء بما عقدناه معكم. وقد وجهنا إليكم صحة رسولكم أربعة من النصارى من أرضكم، فقصدنا منكم أيها السلطان أن توجهوا إلينا المسلمين الذين أخذتهم أجفانكم في سلوة الددع⁽³⁾، وتعملوا في ذلك ما يقتضيه وفاؤكم الصادق، ونحن قد أمرونا أن نبحت عما أخذ من أرضكم من النصارى في الصلح، ويعمل في ذلك ما هو الواجب. ومما نعرفكم به أنه في هذه الأثمور⁽⁴⁾ عمّر بطرة أغرو⁽⁵⁾ من سكان أريولة⁽⁶⁾ شطّها في المدور⁽⁷⁾،

(1) أي قصر الحمراء الكبير الذي كان مقراً للسلطان.

(2) Calatajub من أعمال سرقسطة عاصمة بني تجيب وبني هود من ملوك الطوائف، ثم عاصمة مملكة أراغون في القرن 12م؛ الروض المعطار 469، بروفنسال 163، الترجمة 195.

(3) لعلها من القرى الصغيرة الواقعة على البحر المتوسط، وكانت تتبع المرية.

(4) هكذا وردت في الأصل.

(5) هكذا ذكر في الأصل ولعله اسم أحد القواد العسكريين الفرنجة.

(6) Orihuela تابعة من أعمال مرسية Murcia جنوبي الأندلس؛ الروض المعطار 67، بروفنسال

34، الترجمة 43.

(7) Almodavar من أعمال قرطبة التي كانت مركز الخلافة الأموية بالأندلس.

وأخذ بطرف البطة إثني عشر شخصاً من أهل المرية⁽¹⁾، فنريد منكم أيها السلطان أن يعزّ عليكم هذه الحال، وتعملوا فيه ما يعمله سلطان مثلكم، وتوجّهوا إلينا هؤلاء المسلمين، وتأمرؤا رجالكم بكفّ الضرر عن أرضنا على المعلوم من وفائكم⁽²⁾ وحفظكم للعهد. والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه، وييسرّكم لما يرضاه. والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً. وكتب في الحادي عشر لجمادى الآخرة عام ستة وعشرين وسبعماية.

العنوان:

السلطان الأجل المرقع المكرم المبرور
المشكور الأوفى الأخلص دون جقمى
سلطان بلنسية وقمط برجلونة وصاحب
قرصقة، وصل الله عزته بتقواه وأسعده
بطاعة الله ورضاه.

* * *

الرسالة الثالثة: «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

السلطان الأجل، المرقع، المكرم، المبرور، المشكور، الأوفى، ملك أراغون وسلطان بلنسية وصاحب سردانية وقرصقة⁽³⁾ وقمط برشلونة⁽⁴⁾، وصل

(1) Almeria مرفأ في أسبانيا اليوم على البحر المتوسط. كانت مدينة بالاندلس عامرة. سكانها أكثر من 25 ألف نسمة، كما كانت عاصمة بني صمادح من ملوك الطوائف؛ الروض المعطار 537، بروفسال 183، الترجمة 221.

(2) في الأصل المطبوع: وفايكم.

(3) في الأصل المطبوع: قرصقة.

(4) في الأصل المطبوع: برجلونة.

الله عزته بتقواه، ويسره لما يحبه الله ويرضاه، مكرم مملكته، وشاكر مودته، المثني على صحبته، البريجانية، العارف بمقاصده في الملوك الأوفياء ومذاهبه. من عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر.

أما بعد، فإننا كتبنا إليكم من حمراء غرناطة حرسها الله، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله. وجانبكم مبرور، ومذهبكم في الوفاء مشكور، ومنصبكم في الملوك معلوم مشهور. وإلى هذا فقد وصل كتابكم المبرور في شأن الأشخاص الذين باعهم الجنوبيون بالمرية، وغيرهم من أهل أرضكم. واعلموا أننا لو عرفنا أنهم من أهل أرضكم ما سمح في بيعهم ولو جّهنهم إليكم على ما يوجب الوفاء بالعهد. فإننا ما عندنا مثل الوفاء بما عاهدناكم عليه، ولكن⁽¹⁾ عند وصول كتابكم، وجّهننا التفسير بأسمائهم⁽²⁾ إلى المرية، وأمرنا أن يبحث عنهم ويسرحوا من أيدي من هم عندهم. ونحن نعمل في ذلك ما يوجب الوفاء وما يقتضيه اعتقادنا في صحبتكم بحول الله. فاعلموا ذلك، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه، ويسعدكم بطاعته ورضاه. والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً. وكتب في شهر جمادى الآخرة عام خمسة وثلاثين وسبعماية.

العنوان:

السلطان الأجل المرقع المكرم المبرور

المشكور الأوفى الأخلص دون الهنشة

ملك أراغون وسلطان بلنسية وصاحب

سردانية وقرصقة وقمط برجلونة، وصل

الله عزته بتقواه.

الرسالة الرابعة: «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا

(1) في الأصل المطبوع: لاكن.

(2) في الأصل المطبوع: بأسمائهم.

محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلّم.

السلطان الأجل، المرقّع، المكرم، المبرور، المشكور، الأوفى، الأخلص، دون بطره⁽¹⁾ ملك أراغون وسلطان بلنسية وصاحب سردانية، وقمط برشلونة⁽²⁾، وصل الله عزته بتقواه، وأسعده بطاعة الله ورضاه، مكرم جانبه، وشاكر مقاصده في الوفاء ومذاهبه، حافظ عهده النزيه، العارف بمحله في الملوك منصبه.

الأمير عبد الله بن يوسف بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر. أما بعد، فإننا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة حرسها الله، وليس بفضل الله سبحانه إلاّ الخير الأكمل واليسر الأشمل، والحمد لله كثيراً، وعن الحفظ لعهدكم والثناء على مذهبكم في الوفاء وقصدكم، والعلم بمنصبكم في ملوك النصرانية ومجدكم. وإلى هذا فقد وصلنا كتابكم جواباً عما كتبناه إليكم في شأن الضرر الذي لحق بلادنا من أرضكم. تذكرون أن ذلك الضرر الأعظم عندكم، وحاشا لله أن نعتقد فيكم إلاّ الوفاء الذي يليق بمملكتم وسلفكم. فمثلكم من الملوك الكبار لا يُعتقد فيه إلاّ الوفاء والصدق؛ وما ذلك الضرر لا يليق بأهل الأرض، وأكثره من الناس الخارجين عن طاعتكم من لقنت⁽³⁾ والمدور وأريولة، والأرض التي لنظر بطره شارقة. ومع ذلك فإنه ضرر كبير، ومنه ما هو من البلاد التي تحت طاعتكم. ففي هذه الأيام أضّر بهذه السواحل شطي، وحمل من المسلمين جملة حتى أحد، وأقرّ ناسه أنه عمّر ببلنسية. فالقصد منكم أن تنظروا في هذه الحال بما هو المعلوم من وفائكم⁽⁴⁾ وغيرتكم على عهدكم، حتى تجبروا ما أخذ من المسلمين وأموالهم، وتكفّوا

(1) هو الملك بيدرو الرابع ملك أراغون الذي خلف والده ألفونسو الرابع على عرش أسبانيا عام 1336م. وكان قوياً ذا هبة وامتد حكمه حتى عام 1387م بعدما اتسعت رقعة دولته.

(2) في الأصل المطبوع: برجلونة.

(3) Alicante مرفأ أسباني على البحر المتوسط. سكانها أكثر من ربع مليون نسمة. فيها بعض

الصناعات؛ الروض المعطار 511، بروفنسال 170، الترجمة 205.

(4) في الأصل المطبوع: وفائكم.

الأيدي العادية . وعرفونا بما عندكم في قصبة تلك البلاد التي خرجت عن طاعتكم لنعلم مذهبكم في ذلك ونبني عليه . وعرفتم بأنكم قد كتبتم إلى منورقة⁽¹⁾ ، ليوصل إليكم منها المفسدون الذين خرجوا على عهدكم وأضرّوا بالمسلمين في قصبتهم للواجب . وذلك هو الذي يليق بكم ونشكركم عليه . ووقفنا في كتابكم على فصل طلبتم منا فيه أن نعرفكم بمذهبنا في الصلح ، فإنكم صعب علينا ما تضمنه كتابنا من أنه لا صبر على هذا الضرر ، فاعلموا أن قصدنا بما كتبناه إليكم ما هو إلا أنه إن لم تنصفوا فيفسرّن في ذلك الضرر . وأما ما عقدنا من الصلح فنحن نوفي به على حسبما اشترطناه ما ويتم لنا أيها السلطان . فكونوا من ذلك على يقين . والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، ويسعدكم بطاعته ورضاه . والسلام يراجع سلامكم . وكتب في يوم الخميس الثالث والعشرين من محرّم مفتتح عام ثمانية وثلاثين وسبعماية» .

العنوان :

السلطان الأجل المرقع المكرم
المبرور الأوفى المشكور الأوفى
الأخلص دون بطره ملك أراغون
وسلطان بلنسية وصاحب سردانية
وقمط برجلونة وصل الله عزته بتقواه
وأسعده بطاعة الله ورضاه يمينه وفضله .

* * *

التحليل والمضمون : تعطينا هذه الرسائل صورة عن طبيعة العلاقات التي كانت قائمة آنذاك بين ملوك المسلمين في غرناطة وملوك الفرنجة في أراغون . فالمملكتان الإسلامية والمسيحية متجاورتان ، ولم يكن يفصل بينهما سوى

(1) Menorca إحدى جزر البليار وتتبع أسبانيا . مساحتها 668 كلم وسكانها حوالي 70 ألف نسمة . عاصمتها مدينة ماهون ، وفيها بعض الآثار ؛ الروض المعطار 549 ، بروفنسال 185 ، الترجمة 224 .

شريط ضيق وقصير من الأرض ليس وراءه مدن أو معاقل إلا مدينة لورقة⁽¹⁾ الحصينة ومثلث مرسية ولقنت وأوريولة، ولم تكن مملكة أراغون تطمع بأرض غرناطة في ذلك الحين بعدما استولت على معظم القواعد الأساسية الأندلسية شرقاً وجنوباً، بل كانت تنظر إلى جارتها مملكة قشتالة الكبيرة القوية التي تحدّ مملكة غرناطة شمالاً وغرباً على حدود طويلة معها.

ولقد اتسمت هذه العلاقات بالمهادنة والسلام، ولم تكن تكدرها سوى بعض الأحداث الصغيرة التي كان يقوم بها بعض الخارجين على الحكم، أو بعض المرتزقة، مما يستدعي إرسال رسول حامل كتاب الملك إلى نظيره. وقد ساعدت هذه الرسائل المتبادلة على إقامة حركة نشطة في التجارة وغيرها، وجعلت الناس يتنقلون بحرية وأمان، حيث العهود محفوظة، والوفاء قائم، وإنصاف المظلوم محقق.

وهذه الرسائل إما أنها جواب على رسالة من ملك أراغون أرسل بها لملوك المسلمين طلباً للصلح أو تجديد الصلح حين يتغيّر شخص الحاكم المسلم، كما هو حال الرسائل الأولى والثانية والثالثة، فقد جاءت رداً على رسائل ملك أراغون دون جيمي الثاني، وفيها يطلب أمير المسلمين الالتزام بالوفاء والصدق والإخلاص في المعاملة وأن تكون العلاقات قائمة على هذا الأساس بحيث يرفع الحيف والضرر عن بلاد المسلمين. وكلما ألّمت بالمسلمين مصيبة أو خطر سارع الأمير المسلم لتنبيه ملك أراغون إلى عواقب وخطورة هذا التصرف الذي قد يؤزّم العلاقات مما ينتج عنها نتائج سيئة، وهو ما نراه في الرسالة الرابعة مع ما فيها من حدة النبوة والتهديد المبطن في آخرها، حيث نرى من خلال ألفاظها أن ملك أراغون استفسر في رسالته لأmir المسلمين عن معنى عباراته وماذا يقصد منها. وقد هدأ أمير المسلمين من روع ملك أراغون وطيب خاطره

(1) Lorca مدينة أندلسية في جنوب أسبانيا اليوم إلى جنوب غربي مرسية. سكانها حوالي 100 ألف نسمة فيها حصن كبير من القرن العاشر. الروض المعطار 512، بروفنسال 171، الترجمة

بأنه لا يزال على العهد والوفاء لما اصطلحنا عليه.

والملاحظ أيضاً في أسلوب هذه الرسائل لغة المديح والثناء والتبجيل وذلك من خلال الألقاب والأوصاف التي كان الملوك يتبادلونها (الملك المعظم...) بحيث كانت تتكرر في جميع الرسائل وتذكر في النهاية أيضاً على صفحة العنوان. وهذه عادة كان يكتنها الملوك بعضهم لبعض ويقدمونها. كذلك نلمح التأثير الديني في صياغة الرسائل وذلك من خلال البدء بالبسملة والصلاة على النبي ثم حمد الله تعالى وشكره، وإنهائها بالدعاء له بالتقوى والتيسير.

فلغة الكتابة الدبلوماسية آنذاك لغة سهلة بسيطة لا تعقيد فيها ولا إبهام، اللهم إلا من بعض الجمل الركيكة، وهذا يدل على أن اللغة العربية في ذلك الوقت بدأت تنحسر لقلة اهتمام الملوك والأمراء بالناحية الأدبية، نتيجة للمتغيرات المتلاحقة بسبب كثرة الحروب والفتن وبداية استرداد الفرنجة للأندلس من أيدي المسلمين، مما جعل غالبية أمراء المسلمين ينصرفون للحرب دونما عناية بالأدب والشعر والخطابة، كما كانت عليه الحال أيام الازدهار والرخاء اللذين عرفتهما الأندلس لقرون عدة.

* * *

المجموعة الثانية: وهي أربع وثائق دبلوماسية من أمراء المغرب الأوسط⁽¹⁾ إلى الأمبراطور شارلكان⁽²⁾ في أوائل القرن السادس عشر وتحديدًا بين سنتي 939 و949هـ/ 1532 - 1543م، عثر عليها الأستاذ محمد عبد الله عنان في دار المحفوظات الأسبانية العامة في سيمانكا Simancas.

(1) يقصد بالمغرب الأوسط المنطقة الممتدة من تونس إلى شرق الجزائر.

(2) هو شارل الخامس Charles Quint (1500 - 1558م). ملك أسبانيا عام 1516م وإمبراطور

الغرب 1519 - 1556. حارب الأتراك، ودخل في نزاع طويل مع فرانسوا الأول وأسرّه.

اعتزل في دير بوست؛ الموسوعة العربية الميسرة 1064 - 1065.

نصوص الرسائل (الوثائق)

الوثيقة الأولى⁽¹⁾: «الحمد لله وحده. هذا ما تعاهد عليه السلطان الأجل أمير المؤمنين أبو⁽²⁾ عبد الله محمد الحسن⁽³⁾ سلطان مدينة تونس نصره الله، والسلطان الكبير، والعلم الشهير، دون كارلوص إنبلادور رومه، وسلطان أسبانية وداليون ودلاكون ومن الجزيرتين. من بعد عقد سبق بينهما في سادس يوم من أغشت⁽⁴⁾ الشهر المذكور في هذا إنهما معاً باقيا على العقد المذكور. ووجه الإنبلادور المذكور بعض أغربة من عمارته التي كانت بتونس لبلد بونة⁽⁵⁾، بعد أن بلغه أن فيها تُرك وخير الدين الملقب ببربروخا⁽⁶⁾ وبعض قراصين البحر. فلما بلغت عمارة السيد الإنبلادور المذكور فرّ جميع من كان ببلدة بونة من أهل البلد والترك، وصار البلد المذكور في حوزة من وجه لها السلطان الإنبلادور المذكور، على ما سبق بين السلطانين المذكورين من العقد المذكور قبل هذا، صار البلد المذكور على ذمة الإنبلادور المذكور وتحت عمالته ولموارثه، وإنه قادر على ملكها، وتكون تحت إيالته⁽⁷⁾. وبعد ذلك كان من فضل الإنبلادور المذكور، وتجديد محبته في السلطان أبي عبد الله محمد

(1) رقم الوثيقة P.R. 11-105 سيمانقا.

(2) في الأصل المطبوع: أبي.

(3) هو محمد بن الحسن بن محمد بن محمد المسعود الحفصي. توفي حوالي 990هـ/1582م. آخر ملوك الدولة الحفصية بتونس. كاتب الأسبان واستعان بشارلكان، حيث دخلوا تونس وأذاقوا أهلها الويلات. توفي بالسجن في العاصمة العثمانية بعدما احتلها جيش سنان باشا وطرده منها الأسبان؛ الأعلام 6/89، الخلاصة النقية 88، خلاصة تاريخ تونس 129.

(4) يعني شهر أغسطس (آب).

(5) بونة هي مدينة عنابة الحديثة في شرق الجزائر، مرفأ هام، سكانها حوالي 350 ألف نسمة. مركز ولاية. فيها آثار رومانية. الروض المعطار 115، الإستبصار 127، البكري 54.

(6) هو خير الدين بربروسا ويقال بربروس، بخار تركي الأصل. أسس مع أخيه عروج دولة في الجزائر في القرن السادس عشر. قاتل الغزاة الأوروبيين، وأنهم بالقرصنة. توفي بأستانبول

عام 1546م؛ خلاصة تاريخ تونس 124 - 130.

(7) أي تحت سلطته وسيادته أو رعايته.

الحسن المذكور، كما سبق بينهما في تونس وردادها له من يد بربروخا المذكور، وهو راضٍ ومبتهج بأنه يملك قصبة بونة المذكورة، وما يرجع إليها من داخلها وخارجها، وجهتها ومنافعها، له ولموارثه من بعده، ويخلى البلد المذكور السلطان أبو⁽¹⁾ عبد الله محمد الحسن المذكور بمالها من داخل وخارج ووطن، وجميع مالها من المنافع البرية والبحرية، بشرط ملازم أن مولانا أبا⁽²⁾ عبد الله محمد الحسن المذكور وورثته من بعده يلتزمون⁽³⁾ ويكونون ملتزمين أنهم يعطون ويقدمون⁽⁴⁾ للسيد الإنبلادور المذكور ولموارثه من بعده من سلاطين أسبانية، لطول الأبد، ثمانية آلاف دينار في كل عام من وطن بونة ومغرمها ومنافعها وما يقبض منها، معونة لما يحتاج إليه الجيش الذي يكون بالقصبة المذكورة لحصن البلد المذكورة وعانة له. ولا تكون الملتزمة المذكورة إلا على ما يقبض من البلد المذكور من المنافع البرية والبحرية ووطنها وما يرجع إليها. وإن لم⁽⁵⁾ يتحصّل بيده شيء من البلد المذكورة أو مما ينسب إليها فلا يلزمه من ذلك شيء. وجميع ما تجبونه من المجبا غير الثمانية الألف دينار المذكورة تكون للسلطان أبي عبد الله محمد الحسن المذكور ولورثته من بعده. وأنه هو وورثته رضوان، لا يمنعون⁽⁶⁾ من بالقصبة المذكورة من الماء حيث ما كان، وأن كل ما يحتاجون⁽⁷⁾ من الزوادة المذكورة وغيرها يشترونه⁽⁸⁾ من البلد المذكور كيف المسلمون⁽⁹⁾، ويوصلونه⁽¹⁰⁾ على الأمان للقصبة

(1) في الأصل المطبوع: أبي.

(2) في الأصل المطبوع: أبي.

(3) في الأصل المطبوع: يلتزمون.

(4) في الأصل المطبوع: يعطوا ويقدموا.

(5) في الأصل المطبوع: والم.

(6) في الأصل المطبوع: لا يمنعوا.

(7) في الأصل المطبوع: يحتاجوا.

(8) في الأصل المطبوع: يشتروه.

(9) أي كالمسلمين سواء بسواء.

(10) في الأصل المطبوع: ويوصلوه.

المذكورة بلا غرم ولا زيادة كيف المسلمون. وجميع ما ذكر في الكتاب المذكور لا يزيد في الآخر ولا ينقص إلا كل منهما يبقى على حاله، ويُهاد أجره الآخر زهاداً من غير نقص ولا زيادة. وأن مولانا أبا⁽¹⁾ عبد الله محمد الحسن المذكور رضي بجميع ما ذكر، وأنه هو وموارثه التزموا إعطاء الثمانية الألف دينار المذكورة للسيد الإنبلادور المذكور وموارثه سلاطين أسبانية أو من يكون قائداً⁽²⁾ وقبطاناً نائباً عنه بالقصبة المذكورة على ما سبق في العقد المذكور تحت أمر الإنبلادور المذكور من أول ما يقبض من البلد المذكور من مجباها، وكيف يقبض يدفع. وهذا الالتزام المذكور يكون من عام ألف وخمسمائة وستة وثلاثين من مولد المسيح الموافق لعام ثلاثة وأربعين وتسعمائة من الهجرة، على أن بعد كل أربعة أشهر يدفع ثلث العون المذكور، وآخر العام يكمل كمال العون المذكور. وبتصحيح العون المذكور، يلتزم مولانا أبو⁽³⁾ عبد الله محمد الحسن المذكور هو وموارثه وماله ومالهم الذي معه اليوم أو ما يكسبه معاً، يستقبل تصحيح الثمانية الألف دينار المذكورة التي تعينت للسلطان الإنبلادور المذكور هو وموارثه وهو راضٍ ومبتهج. وإن لم يوف⁽⁴⁾ بالشرط المذكور يقبض النائب⁽⁵⁾ بالقصبة المذكورة، العون المذكور من ربع البلد المذكور ومجباها، الذي هو لنظر المولى الحسن المذكور من أصح الوجوه وأيسرها من البلد المذكورة وما يرجع إليها. وإن لم يوف⁽⁶⁾ بما ذكر، يعمل السيد الإنبلادور المذكور وموارثه من بعده ما تطيب عليه خواطرهم في البلد المذكورة، وما يرجع إليها. وإذا كمل ذلك إليها معاً أن يكون المسلمون والنصارى تحت أمان وصحبة وجودة وترتيب صادق، وأمن لكل منهما لكي يعمر البلد المذكور ويكونوا فيها آمنين. وأمر السيد الإنبلادور المذكور

(1) في الأصل المطبوع: أبي.

(2) في الأصل المطبوع: قائداً.

(3) في الأصل المطبوع: أبي.

(4) في الأصل المطبوع: يوفاً.

(5) في الأصل المطبوع: النائب.

(6) في الأصل المطبوع: وألم يوفاً.

قائد⁽¹⁾ القصة المذكورة وما تحت يده من العسكر أن لا يعرضوا لساكني⁽²⁾ البلد المذكورة بشيء. وفي تصحيح ذلك كتب كل منهما خطه هنا بالموافقة على ذلك بتاريخ ثالث عشر من أغشت عام ألف وخمسمائة وخمسة وثلاثين من مولد المسيح الموافق لثاني عشر صفر الخير عام اثنين وأربعين وتسعمائة.

توقيع

توقيع

Carlos

أبو عبد الله محمد الحسن

* * *

الوثيقة الثانية⁽³⁾: «الحمد لله وحده. من عبد الله، المتوكل عليه، المفوض في جميع أموره كلها إليه، المعتمد على فضل الله وكرمه في السر والعلن، أميرنا ومولانا، أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الحسن سلطان تونس، نصره الله، إلى السلطان الكبير، العلم الشهير الخطير الأثير، الهمام الباسل، أعلا ملوك النصرانية قدراً، وأجلهم فخراً، السلطان دون كارلوس، الإنبادور، أكرمه الله تعالى.

لعلمكم أنا على ما بيننا من خالص الوداد وجميل الاعتقاد، لا يبدله الدهر، ولا يغيره إلى يوم الثناد⁽⁴⁾. ولنا سائلون⁽⁵⁾ عن أحوالكم، مشتاقون إلى ما يرد إلينا من أخباركم. ومما أعلمكم أن صاحب قصبة بونة بقي يوجه لنا كتباً⁽⁶⁾ بعد كتب، إلى أن وجهنا له قائداً⁽⁷⁾ لبلد بونة، ثم أخذ القائد في الثنية أخرى المفاسيد

(1) في الأصل المطبوع: قايد.

(2) في الأصل المطبوع: ساكنين.

(3) رقم الوثيقة P.R. 11-204 سيمانقا.

(4) في الأصل المطبوع: التناة.

(5) في الأصل المطبوع: سايلون.

(6) في الأصل المطبوع: كتب.

(7) في الأصل المطبوع: قايد.

العلماء⁽¹⁾ على الترك، وقالوا هذا ماشي نصره النصاري⁽²⁾، ومنع القائد، ومنع معه بعضاً⁽³⁾ من الجيش وصلوا إلى بونة وقاموا بها مدة يسيرة. ثم إن صاحب القصة طلبه فيما وقع الوفق به مع سيادتكم، وهو الأخذ والعطاء وهو أعرف بحاله، ونحن ما فعلنا إلا ما أمرتم به، وما جاء في بالكم، والذي بيننا وبينكم من الموائيق والعهود⁽⁴⁾ لم نزل عليها، ولا يبدل الدهر بيننا وبينكم بشيء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فنرغب من مقامكم أن تبعث وتوصية لأنه أحاطت⁽⁵⁾ به هناك مفسدون⁽⁶⁾ وسمع كلامهم. ونحن منكم ومسمون⁽⁷⁾ عليكم. وكما أنتم عاملتمونا بالسيادة والفضل، نود أن أصحابكم لا يعاملونا إلا كما عاملتمونا به. فإن الذي عاملتمونا به من الفضل لا نستطيع أن نرد كفاه، والبلاد بلادكم، ونحن نواب عنكم، ولا يحول بيننا وبينكم شيء. والله المسؤول أن يديم علينا وعليكم نعمة العافية وهو حسبنا ونعم الوكيل. وكتب بقاني أوائل⁽⁸⁾ شهر الحجة الحرام مكمل شهور عام اثنين وأربعين وتسعمائة، عرفنا الله تعالى خيره».

توقيع

أبو عبد الله محمد الحسن

العنوان:

«إلى السلطان الكبير، العلم الشهير الخطير، الأثير الهمام الباسل، أعلا

(1) أي أنه أوصى القائد بالآ يصغي لكلام العلماء ومفاسدهم.

(2) أي أن هذا القائد لا يعني شيئاً فهو منتصر بالنصاري.

(3) في الأصل المطبوع: بعض.

(4) في الأصل المطبوع: العواهد.

(5) في الأصل المطبوع: لاين حاطت.

(6) في الأصل المطبوع: مفاسيد.

(7) في الأصل المطبوع: مسميون.

(8) في الأصل المطبوع: أوائل.

ملوك النصرانية قدراً وأجلهم فخراً، السلطان دون كارلوص الإنبلادور، أكرمه الله تعالى وأبقاه».

الوثيقة الثالثة⁽¹⁾: «الحمد لله تعالى حمداً كثيراً يتجدد ويتوالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. الحضرة التي جلّ في الأقدار قدرها، واشتهر في الفضائل⁽²⁾ والمفاخر فضلها وفخرها، حضرة السلطانة الجليلة الفاضلة الكاملة الشهيرة الخطيرة، الحسبية، الأصيلة، الأنبرطريس دونيا إيزابيل⁽³⁾ أسعدها الله بتقواه، ووفقها لما يحبه ويرضاه.

كتبناه إليكم من حضرتنا تلمسان⁽⁴⁾ حرسها الله، ونحن نحمد الله الذي لا شيء مثله، ونشكره على جميع إحسانه وفضله، ونسأله اليمن والتوفيق في شأننا كله. وعندنا لجانبكم المرقع كرامة نستوفيها، ومبرة لا شك فيها. وعلمنا بمجدكم الشهير وقدركم الخطير يستدعي الزيادة من ذلك ويقتضيها، وإلى هذا فموجب كتبنا إليكم هو إعلامنا وإياكم بما نحن عليه من الوفاء القديم، والتمادي من الأسباب المرعية على المنهج القويم. وقد وصلنا كتابكم المعظم وخطابكم المكرم، صحبة خديمكم الفارس المحترم لويس هرنديس، وعرفنا منه جميع ما ذكرتم، واستوفينا ما شرحتم، فقابلنا تعريفكم بالشكر الجزيل، وأثنينا على مقامكم الثناء الجميل، عملاً على ما ثبت لدينا من وذكّم وتقرّر، وتردد وتكرّر. وإننا الآن وجهنا إليكم من يجدد العهد بهذا الغرض، ويقوم منه بالواجب المفترض، ويقرّر لديكم معتقدنا من صدق الوداد، وخالص الاعتقاد،

(1) رقم الوثيقة P.R. 11-205 سيمانفا.

(2) في الأصل المطبوع: الفضائل.

(3) ملكة أسبانيا وزوجة الأمبراطور شارلكان، كان لها نفوذ واسع وسلطة قوية. الموسوعة العربية الميسرة 284، 1064، وانظر أيضاً: Larousse (لاروس)، 113/4 - 114.

(4) مدينة جزائرية أمام جبال تلمسان. عاصمة ولاية اليوم وسكانها أكثر من 125 ألف نسمة. ازدهرت أيام المرابطين وكانت مركزاً للعلوم وسوقاً تجارية. كانت عاصمة بني عبد الواد في القرن 13 - 16م. فيها آثار وصناعات حرفية؛ الروض المعطار 135، الاستبصار 176، البكري

وهو أعز قوادنا ببابنا الكريم، والمعتمد منا بمزيد التفضيل والتقديم، الأصيل المجد في ذوي الحسب الصميم، القائد⁽¹⁾ المرفع المحترم، الثقة الأمين على أسرارنا في البدء والمختتم، ابن عبد الله ابن وزير دولتنا وبلادنا، ورئيس حماتنا وأنجادنا، الشيخ الوزير محمد بن أبي غانم حفظ الله رتبته، وحرس وجهته، ومعه خديمكم لويس هرنديس أكرمه الله، فوجهناه إليكم ليطالعكم بعيون الأخبار، وجميع المتزايدات بهذه الأقطار، ولتلقوا إليه ما ينفذ به أمركم من جلب المصالح، وما يعود علينا وعليكم نفعه من النظر السديد والرأي الناجح، فإن نيتنا في ودكم ما زالت، وأغراضنا جارية على ما يليق بنا وبكم ما تبدلت ولا حالت، ولا تلتفتوا لما كنا مؤهنا به في العام السالف من تقديم من قدمناه بوطن أغيال، أو ما خيلنا من تلك الأحوال. فمقامكم أوسع فضلاً، وأرجح عقلاً من أن يظن أن ذلك كان منا عن حقيقة، أو أنا ارتضينا سلوك تلك الطريقة، بل في صحيح علمكم ما هو حالنا عليه من نكاية صاحب الجزائر، وما هو يرومه من تشغيينا في الباطن والظاهر، ففعلنا ذلك طمعاً في مهادنة، وحيلة لجلب محاسنة. ولما أعيانا أمره، واشتد تنكيهه وضره، أظهرنا له ما كنا نخفيه من عداوته، وقابلناه بما يليق بفساد نيته وخبث سريرته. وقد توفر الآن عزمنا في إعمال الحركة عليه، والتوجيه بكل وجه يمكن إليه. فجميع العرب والقبائل على حربه متفقون، وإلى تضيقه وحصاره شارعون، وغرضنا منكم أن تبادروا بتوجيه العمارة في الحين والوقت بالجد والعزم، وتجتهدوا في ذلك غاية الاجتهاد والأخذ بالحزم، وتكونوا عليه براً وبحراً يداً واحدة، وفئة مساعدة، وتجاوبونا مع الرسولين المذكورين بما يظهر لكم، وما يقتضيه ذلك في نظركم وفعلكم. هذا ما عندنا عرفناكم به شافياً، ولتكميل المقاصد كافياً إن شاء الله. وكتب عن أمر عبد الله المتوكل على الله أمير المسلمين عبد الله ابن مولانا أمير المسلمين أبي عبد الله أيده الله ونصره في ثامن عشر جمادى الآخرة عام تسعة وثلاثين وتسعمائة».

العنوان في لوحة خاصة:

(1) في الأصل المطبوع: القائد.

«الحضرة التي جلّ في الأقدار قدرها، واشتهر بالفضايل والمفاخر فضلها وفخرها، حضرة السلطنة الجليلة المرفعة الأصيلة، الفاضلة الكاملة الشهيرة الخطيرة، المكرّمة، الأنبرطريس دونيا إيزابيل، أسعدها الله بتقواه، ووقفها لما يرضاه».

* * *

الوثيقة الرابعة⁽¹⁾: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله. الحمد لله الذي جعل الخلافة عصمة للأنام، وحفظاً لبقاء النظام، وركناً وثيقاً على الدوام، وملجأً منيعاً لنفوذ حكم الحكام. قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعزّز من تشاء، وتذلّ من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير. أما بعد هذه المقدمة الحميدة المقاصد، المشتملة على السرّ في حكمة الباري والفوائد⁽²⁾، بث ومكتوب وثيق كريم، وخطاب واضح جسيم، ورسالة خصّ بها الملك الإمام، السلطان الفاضل الهمام، المرتضى الإيالة الأنام، البطل الشامام، الباسل الضرغام، صاحب الشهامة والإقدام، والضرب بالأسنة والحسام، الأظهر، الأوحد، العماد، الأشهر، الكهف، الملك الأمضى، السامي، الشجاع، الحامي، البطل، الكافل، الأحفل، تاج الملوك الكبرا، وفخر السلاطين الأمرا، الأمجد، الأنجد، المعلوم بالجلالة والعفاف، المعدود في فضلاء الملوك والأشراف، ملك البرين، وحائز⁽³⁾ حكم البحرين، سيد ملوك الزمان، وناشر لواء الفضل والإحسان، السلطان الشهير، الحائز⁽⁴⁾ للفضل الكبير، الأظهر، الأكبر، الأمضى، الأرضى، الأحضى، الأسنى، الأسمى، الأحمى، الألمع، الأ منع، ذو البأس المشهور، الملك أنبرضور⁽⁵⁾. فإنّا كتبنا إليكم من حصننا المصون،

(1) الوثيقة رقم . . . P.R سيمانقا. ولم يذكر لها رقم.

(2) في الأصل المطبوع: الفوائد.

(3) في الأصل المطبوع: حايّز.

(4) في الأصل المطبوع: الحايّز.

(5) يعني الأمبراطور.

وملجئنا المنصور المشهور، عند القريب والبعيد، والشائع⁽¹⁾ عند الأحرار والعبيد، كوكو⁽²⁾، عن إذن ملكه القائم⁽³⁾ بجميع شؤونها، سيد زواوة⁽⁴⁾ وسلطانها، وأميرها وقاهرها، أبي عبد الله محمد بن محمد القاضي⁽⁵⁾، أيده الله. وإلى هذا فإننا على ما تعلم من الجِد والإهتمام فيما يجمع كلمتنا معكم منذ أعوام، وما غفلنا عن المكالمة مع خديمكم قبطان بجاية⁽⁶⁾، ولا نشك أنه خفى عنكم جميع ذلك. فلما أن رأينا أن ذلك غير كافٍ، وجَّهنا إليكم بأعز الناس عندنا، وأشرفهم لدينا، الذي هو ولدنا، وضوء حدقتنا، ابن أخينا السيد بي عمر، ليقوم مقامنا، وتحققوا⁽⁷⁾ منه ما عندنا، وليزول الإشكال، وينتفي اللبس، وإنه مهما ورد عليكم، فلئن تبادرون إلى ما طلب منكم بنهار، وإن ورد عليكم بنهار فكذلك. فإذا بكم توانيتم في الأمور، وتقاعستم في الأشياء، وليس هذا من طبعكم، ولا مما نتعاذه من سيرتكم. وإنما المعلوم منكم، والمعهود من طرقكم مع من سلف من الملوك الحاليين ببالكم، المبادرة من حينكم، والإجابة إلى ما يطلبونه منكم، مع أنهم لم يوجهوا إليكم مثل من وجهته إليكم، لأنهم يوجهون إليكم الأصحاب، ونحن وجَّهنا أولادنا إلى مقامكم الرفيع، وحلوا ببالكم المنيع. وهذه مدة

(1) في الأصل المطبوع: الشائع.

(2) كوكو مدينة مشهورة في البلاد السودانية، تقع على ضفة نهر، وملكها قائم بنفسها. كانت حصناً منيعاً؛ الروض المعطار 502، بسط الأرض 26، صبح الأعشى 5/285، ابن الوردي 35.

(3) في الأصل المطبوع: القايم.

(4) قبيلة أفريقية كانت تسكن الصحراء قرب جبل وانشرس، ولها صلات قوية مع قبائل الطوارق الصحراوية. الروض المعطار 600، البكري 89.

(5) هو محمد بن محمد الشيخ ابن أبي زكريا الوطاسي المعروف بأبي عبد الله البرتقالي. توفي بعد العام 932هـ/1925م. ثاني ملوك الدولة الوطاسية بفاس، وفي أيامه ظهرت الدولة السعدية ببلاد السوس ثم بمراكش. الأعلام 7/56، الاستقصا 2/170.

(6) هي اليوم مدينة في الجزائر بولاية سطيف على البحر المتوسط. سكانها أكثر من 100 ألف نسمة. مرفأ نفطي، فيها تمر أنابيب حاسي مسعود النفطية. كانت عاصمة بني حماد في القرن الحادي عشر. الروض المعطار 80، الاستبصار 128.

(7) في الأصل المطبوع: وتحققون.

طويلة ننتظر قدومكم معه، أقدمكم الله في ساعة خير. ولا خفي عنكم ما وقع بيننا وبين عدونا في الصيف من القتال مدة تزيد عن شهرين، وظننا ورودكم إلى الجزائر مع غيبته، وتنقطع مادته، وتريحون الناس منه، ولم يرد الله ذلك. وهو الآن يطلب صلحنا وأبيننا. والقتال كل وقت بيننا وبينه. وعليكم بالجد والعزم، والنهوض والحزم، والقُدوم بأنفسكم مع ولدنا الذي عندكم، وليكن ذلك في شهر يناير، إلا إذا تعذر عليكم ذلك، ولم يساعدكم الزمان إلى ما طلبنا، فوجهوا خمسين غراباً في هذا الوقت المذكور، ليقع بها بعض التضيق على العدو، وحتى يتيسر عليكم الحال. ولو كان السرّ في وجودكم لكن في هذا كفاية في الوقت. وبالجملّة، لما أن شاع عندنا وعند غيرنا، علوّ شأنكم وكبر همّتكم، وإيفاء عهدكم، وتكميلكم المرغوب لمن قصدكم، فبادرنا إلى الحلول ببابكم. فما علينا فعلناه، ولم يبق إلا ما عندكم. فاعملوا بمقتضى ذلك، ولا يسعكم التخلف عنه طبعاً، مع ما نعلمه من سيرتكم، وكتابتكم الذي وجهتم إلينا صحبة صاحب سيدي عمر تأملناه وفهمنا منه ما عندكم، وسرّنا غاية السرور، مع ما أثنى عليكم صاحبنا من فعل الخير مع ولدنا، وشكرنا فعلكم. فجزاكم الله خيراً، إن ذلك المعلوم منكم. واعلم أن جميع ما تلفظ به معكم، ووقع العقد عليه بينكم وبين ولدنا قبلته، ولا نقصّر معكم في جميع ذلك، جلّ أو قلّ. وعليكم بالمسارعة إلى ما طلبناه منكم. وبتاريخ شهر دجانبر⁽¹⁾ عام تسع وأربعين وتسعمائة والسلام التام عليكم والرحمة والبركة».

* * *

التحليل والمضمون: بعد سقوط غرناطة بيد الأسبان عام 1492م، وما نتج عنه من أعمال وحشية قامت بها السلطات الملكية التي تعاقبت على حكم أسبانيا، اتجهت الرغبة لديهم نحو الشمال الأفريقي في محاولة لزرع الرعب والدعر في صفوف المسلمين، وكأنها محاولة لردّ الاعتبار بعدما رزحوا تحت حكم المسلمين فترة طويلة. لذا بدأت أسبانيا نشاطها العدواني ضد ثغور المغرب الشمالية، وكان

(1) أي شهر ديسمبر (كانون الأول).

قد سبقتها في هذا الميدان مملكة البرتغال، واستولت على عدد من الثغور الاستراتيجية منها سبتة والمرسى الكبير قرب وهران، ثم وهران وبجاية.

في هذا الوقت كان الصراع على السلطة، في تونس يدور بين أبناء السلطان الحفصي، حيث استغل أحد البحارة الترك واسمه خير الدين بربروس وأخوه عروج الوضع المتأزم فاستوليا على الجزائر بعد معارك عنيفة مع الأسبان ثم اتجها نحو تونس واستوليا عليها. لكن الأمر لم يدم طويلاً، فقد اتجهت أنظار السلاطين الحفصيين نحو ملوك أسبانيا وتحديداً نحو شارلكان الذي جهّز جيوشه وزحف بها نحو شمال أفريقيا محققاً بذلك هدفين: الاستيلاء على البلاد الإسلامية تحت ذريعة حماية السلاطين الذين استنجدوا به، ووضع اليد على مقاليد السلطة هناك وإرغام المسلمين على دفع الجزية.

حول هذا الوضع، تكشف لنا هذه الوثائق الأربع خطورة الأمر وما آلت إليه أحوال الممالك الإسلامية من الضعف والانهيار، فكان السلاطين يتسابقون في طلب الودّ والمعونة من الغرب آمليين أن يعيدوا عروشهم المنهارة، ومتناسين في الوقت نفسه ما يمكن أن يجزّره مثل هذا العمل الشنيع، بما يحمله من مأس وويلات على المسلمين، إذ كيف يجزّو سلطان مسلم على تسليم بعض القرى والثغور الهامة في بلاده للملك الأسباني ثم يهنأ بعيش رغيد؟

إن ضيق الأفق وقصر النظر كانا يصبغان تحركات السلاطين المسلمين سيّما حينما آثروا نزواتهم ومصالحهم الخاصة ولو على حساب الأرض والكرامة فضلاً عن أمن الأمة وسلامتها، ولو أنهم إذ ذاك وحدوا جهودهم ونظّموا صفوفهم لربما استعادوا بعضاً من أمجاد الآباء والأجداد المسلوبة.

ومن خلال القراءة السريعة لهذه الرسائل الأربع يتضح لنا الإطار العام الذي كان يحكم العلاقات الدبلوماسية بين أمراء الشمال الأفريقي وملوك أسبانيا. ففي الرسالة الأولى يتعهد سلطان تونس أبو عبد الله محمد الحسن بالتنازل عن قصبة بونة لقاء استرداد عرشه من يد الأتراك، وهذا ما فعله حقيقة عندما انتصر على خير الدين بربروس واستعاد ملكه وأبرم هذه المعاهدة مع شارلكان التي أقل ما يقال فيها إنها

خيانة عظمى بمفهوم السياسة المعاصرة، لأنها تقوم على حساب الأرض والأمن مقابل الاحتفاظ بكرسي الحكم ولو بشكل صوري. ومما زاد الطين بلة أن المعاهدة تلزم سلطان تونس وخلفاءه وإلى الأبد التنازل عن هذا الثغر وما يؤول إليه من موارد وتجارة فضلاً عن دفع مبلغ ثمانية آلاف دينار جزية لتأمين نفقات الحماية. وفي مقابل هذا يتعهد ملك الأسبان بحماية سلطان تونس والمسلمين الموجودين في تلك الثغور ضد أية أخطار قد تتهددهم من جانب الأتراك.

وتأكيداً على هذه العلاقات، فقد أرسل رسالة ثانية يشرح فيها أحوال قصبة بونة وشؤونها ويطلب فيها من شارلكان أن يوصي قائده في بونة بالاهتمام أكثر بأمن المواطنين وألا يسمع لكلام المفسدين والواشين، كما يؤكد في رسالته أنه لا يزال على العهد والوعد، بل إنه يعتبر نفسه نائباً عنه ولا يفرق بينهما شيء.

من جهة أخرى كان للسلطنة زوجة شارلكان دونيا إيزابيلا دور بارز في توجيه الأحداث وإدارة شؤون البلاد بما يتناسب ومصالح أسبانيا. وبعيداً عن لغة التودد والطاعة والتبجيل التي أبداها سلطان تلمسان في رسالته، فقد تكشف شخصيتها السلطانية إيزابيلا عن نفوذ قوي ومقدرة عالية في مخاطبة الملوك وبسط سلطتها أينما تريد. ومن ذلك أنها وجهت السفن لنجدة السلطان المسلم واسترداد الجزائر من يد خير الدين بربروس التركي وإعادتها لسلطان تلمسان. لكن شدة المعارك وضراوتها جعلت الأسطول الأسباني بعيداً عن هدفه فلم يقدّم بأي دور إذ بقي راسياً دون حركة، مما جعل الدائرة تدور على أمير تلمسان وجيشه فهزم شرّ هزيمة، التمس على إثرها الصفح والمهادنة من خصمه الظافر، فعفا عنه خير الدين بربروس وهادنه، وهذا ما أكدته الرسالة الثالثة.

أما الرسالة الرابعة فهي محرّرة من صاحب حصن كوكو إلى الإمبراطور شارلكان يطلب فيها نجدة ومساعدته بعدما أعيته الحيل مع غريمه صاحب الجزائر فلم يستطع التفاهم معه ودارت بينهما معارك استمرت لأكثر من شهرين. وهنا لا يجد صاحب الحصن بداً من طلب المعونة والاستنجاد بإمبراطور الغرب ملك أسبانيا شارلكان في محاولة منه لكسب النصر والظفر ولو كلفه ذلك التضحية بالغالي في سبيل تثبيت ملكه وحماية نفسه.

وهكذا فإن هذه الوثائق الأربعة تكشف لنا بنصوصها وروحها عن الأوضاع السياسية والعسكرية التي كانت سائدة في النصف الأول من القرن السادس عشر في المغرب الأوسط، كما توضح لنا أبعاد الصراع والقتال بين الأتراك والأسبان وكيف أن سلاطين المغرب اندفعوا نتيجة الخوف على عروشهم لطلب النجدة من عدو المسلمين الطامع بالأرض. لكن إصرار السلطنة العثمانية على حماية ديار المسلمين أدى في أواخر القرن السادس عشر إلى أن ينحسر سلطان الأسبان شيئاً فشيئاً.

لكن الملاحظ أن لغة هذه الرسائل تتسم بالركاكة والضعف مما يدل على أن ديوان الإنشاء بالبلاط التونسي كان يعاني من قصور واضح في الأداء البلاغي، مع الإغراق الكبير في المديح والإطراء والتبجيل حيث بلغ عدد صفات المديح في الرسالة الرابعة أكثر من خمسين صفة. كما يلاحظ ضعف اللغة في مظاهر السبك الرديء للجملة فضلاً عن أخطاء نحوية ظاهرة.



المجموعة الثالثة: وهي عبارة عن ثلاث وثائق أرسلها ملوك المغرب إلى ملوك أسبانيا، وذلك في النصف الأول من القرن السابع عشر. منها رسالتان من السلطان الأمير العالم مولاي زيدان الحسن بن السعدي⁽¹⁾، بعث بإحدهما إلى فيليب الثالث⁽²⁾ ملك أسبانيا عام 1017هـ/1608م، وبعث بالثانية إلى وزيره الدوق دي مدينة⁽³⁾ سنة 1023هـ/1614م. أما الثالثة فقد وجهها سلطان مراكش الأمير العلي

(1) هو زيدان بن أحمد، أبو المعالي ابن السلطان المنصور بن محمد الشيخ. توفي عام 1037هـ/1627م. من ملوك دولة الأشراف السعديين بمراكش. بويغ عام 1012هـ بالملك وثار عليه أخواه، فهزم، ثم استرد سلطانه وقويت شوكته. كان عالماً بالفقه، عارفاً بالأدب. له عدة كتب. الأعلام 62/3، الاستقصا 98/3.

(2) ملك أسبانيا ابن الملك فيليب الثاني (1578 - 1621). كان ملكاً على صقلية ونابلي والبرتغال. عقد الصلح مع إنجلترا، وكان متمتماً شديداً على المسلمين حتى طردهم كلهم من مملكته. الموسوعة العربية الميسرة 1352 - 1353، لاروس، 536/5.

(3) يبدو أن اسم (دوق دي مدينة) لم يكن يقصد به شخص معين يحمل هذا الاسم، بل هو تعبير في البلاط المغربي يُدعى به رئيس الحكومة الأسبانية.

الناصري⁽¹⁾ إلى فيليب الرابع⁽²⁾ ملك أسبانيا عام 1050هـ/1640م.

* * *

نصوص الرسائل - الوثائق

الرسالة الأولى⁽³⁾: «هذا كتابنا الشريف، المظفري الناصري، الفاطمي، الزيداني، المؤيد بالنصر والتمكين، من رب العالمين، والمطاع في المشارق والمغارب، ابن الامام ابن الأئمة⁽⁴⁾ أمراء المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، إلى المملكة التي تباهى بها أكابر الملة المسيحية وتفاخر، والمرتبة التي ما زالت صناديد الطواغيت تقتدي بالأوائل منها والأواخر، في قنة عز زاد شمعها، على بقاع المضاهي من الممالك النصرانية، وبحبوحه فخر تناط بها المهمات من الأفانية والصبانية؛ مقام السلطان الأعظم الأفخم، الكبير، الملاحظ، الأجل، الراسخ المتمكن، المعتبر، ابن السلاطين الكبار، ذوي المزايا الفخمة، والإيثار، مفخر أهل الناسوت والصليب، والبيت الذي له في الضخامة أوفر حظ وأجزل نصيب.

أما بعد، فإننا كتبناه إليكم من دار مملكتنا وكرسي خلافتنا حمراء مراکش⁽⁵⁾

(1) هو محمد بن زيدان بن أحمد المنصور السعدي، أبو عبد الله الملقب بالشيخ أو الشيخ الأصغر. توفي عام 1064هـ/1654م. من ملوك الأشراف السعديين بمراكش. تولى السلطة فيها. كان متواضعاً. لكنه هزم وثار عليه الناس ولم يستطع الصمود ولم يبق له سوى مراکش. الأعلام 6/132، الاستقصا 3/134، نزهة الحادي 220.

(2) ملك أسبانيا ابن الملك فيليب الثالث (1605 - 1665). كان ضعيف الشخصية والإرادة بحيث سيطر عليه الوزراء وأداروا شؤون البلاد باسمه. الموسوعة العربية الميسرة 1353، لاروس، 5/536.

(3) رقم الرسالة/ الوثيقة F210 سيمانقا.

(4) في الأصل المطبوع: الأئمة.

(5) يلاحظ أن البلاط المغربي كان يطلق في هذا الوقت على دار الملك اسم «الحمراء» تشبيهاً بحمراء غرناطة. ومراكش مدينة مغربية كانت عاصمةً لممالك عدة. وتعتبر اليوم من أهم مدن المغرب. الروض المعطار 540، الاستبصار 208، صبح الأعشى 5/162.

حرسها الله، ولا متعرف إلا مواهب الله التي أسدلت بهذا الجنب العلي رواقها، ونمقت والشكر لله بمساعدة أمانينا أطواقها، لما استوى بمقره كعب آياتنا العلية، وتمكن بمتمته وشيخ دعواتنا العلوية، حيث خفقت بالعز بنودها، وصفى بالعدل ورودها. هذا وإن موجب إصدار هذه المفاتحة أنه لا يشك المرتاب ولا يتطرق الوهم لكل منتاب، في أن تجار الملل النصرانية، على تباين أصنافها وتغاير نعوتها، حيثما ألفت بهم السفار في أصحابي هذه الأقطار، يتسربلون بها برود العز والرعاية، ولا تمتد بوجه إلى ساحتهم أيدي الإذابة. فصارت بذلك أنفسهم ومدخور بضائعهم⁽¹⁾ الثمينة، محوطة من عنايتنا بأسوار لا تزال حصينة. فلا يطرق حماهم في المعاملات سوى طارق الحق، الذي يتساوى فيه لدينا النبيه والخامل، والعالي والسافل، وأنهم في سائر⁽²⁾ ممالكنا لفي دعة لا تنكر، وأمن ذمة لا تخفر. ولأجل ذلك كتبنا لكم في ذمي ينتمي بالخدمة لأبوابنا، وينيط مسبباته بعلئ جنابنا، وهو إبراهيم بن واعيش، فإن له بيلادكم مما لا يخلو عنه المتسبب غالباً أغراضاً، منها أنه كان فيما مرّ أعطى هنا عن بعض الفيدالغوش⁽³⁾ مالاً افتدوا به، فأشهدوا على أنفسهم بأداء ذلك عند بلوغهم أوطانهم. فلما طالبهم أصحابه لاذوا منهم باللداد، وقابلوا صنعه فيهم بدعاوى العناد، وراموا الاستطالة على أصحابه، وخسارة صفقته في أسبابه. فعرفناكم بالقضية لتحسنوا الالتفات إليها، فإنه من المنتشر المشهور الذي تواطأ عليه سكان المعمور، أن التجار الذين يجوبون الآفاق النائية، ويخترقون الأقطار القاصية، هم ألسنة الأيام، ومنهم تستمد الأقلام، في الأقاليم أبناء الأنام، ولذلك ما تزال حرمة الملوك العظام في كل ناحية عليهم مسدولة، وأسباب متاجرهم بأنواع الرعى موصولة. ولربما أنجرت الألفة بين الممالك بسبب ما يغشى كورها من سالكي الممالك. فأردنا انتصاركم لهذا الذمي انتصار أنفة، وانتجاد من تدرب بالوفاء وعرفه، شأن من قام بحق

(1) في الأصل المطبوع: بضائعهم.

(2) في الأصل المطبوع: سائر.

(3) الفيدالغوش Fidalgos هم طبقة من الأسباب النبلاء الذين كانوا يميزون أنفسهم عن بقية الناس.

الوصية، وحافظ في ملاذ التجارب على الحقوق المرعية. فلعل التفاتكم لحقه ينيله الممنوع من قسطه. وهذا موجه إليكم رعاكم الله. وكتب في مستهل ربيع الثاني من عام سبعة عشر وألف.

* * *

الرسالة الثانية⁽¹⁾: «صدر هذا المکتوب العلي الإمامي، الكريم المظفري، الناصري الزيداني، الحسني الفاطمي، الهاشمي السلطاني، عن الأمر العلي النبوي، الشريف العلوي؛ الذي دانت لطاعته الكريمة الممالك الإسلامية، وانقادت لدعوته الشريفة سائر الأمصار المغربية، وخضعت لأوامره جبابرة الملوك السودانية، وأقطارها القاصية والدانية، إلى الرئيس⁽²⁾ الذي له بين أكابر المملكة الأسبانية، ورؤساء الدولة القشتالية، وعظماء الملة النصرانية، المكانة السامية والمنزلة الرفيعة العالية، المكرّم المعظم، دوك دي مدينة.

أما بعد حمد الله الذي جعل بين عباده من الأمم، وإن اختلفت في الأديان وصلة، تعتبرها باعتبار، أحكام السياسة وقوانين الرياسة، الملوك والأمراء والأعيان، وتوجب لها الحق في كل ما يدور بينها من التخاطب والتراسل، في الأمور التي لها البال والشأن. فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا العلية مراکش حاطها الله، والأحوال بحمد الله في ممالكنا الشريفة على ما يسر من كمال الترويح والتمهيد، واجتماع كلمة المسلمين على السمع والطاعة، في كل قريب منها ويعيد. هذا وإنه لما تقرر عندنا ما كان سلف لكم مع والدنا السلطان الأعظم⁽³⁾، مولانا الإمام المقدس المنعم، من جميل المواصلة

(1) رقم الرسالة/ الوثيقة F495 سيمانقا.

(2) في الأصل المطبوع: الرئيس.

(3) هو أحمد بن محمد الشيخ المهدي بن القائم بأمر الله عبد الله بن عبد الرحمن بن علي من آل زيدان، أبو العباس السعدي، المنصور بالله، ويعرف بالذهبي، ولد عام 956هـ/ 1549م وتوفي عام 1012هـ/ 1603م. رابع سلاطين الدولة السعدية في المغرب الأقصى. ساس الرعية بحكمة وإدارة. شجاع عاقل. له عدة كتب. وقد قام بأعمال جليلة وفتوحات عظيمة. الأعلام 1/ 235، خلاصة الأثر 1/ 222، الاستقصا 3/ 42.

وحسن المجاملة، ومقابلة ما يرد على بابهِ الكريم رحمة الله من الأغراض الواصلة من عندهم، وأغراض سلطانكم الواردة على يدكم، بوجه القبول والترحيب. وعلمنا ما كان لكم أنتم أيضاً من السعي الجميل في كل ما يرضيه من الأمور، بعيداً كان أو قريباً⁽¹⁾، خاطبناكم بهذا الخطاب الكريم، لتعلموا أنه⁽²⁾ كما كان لمكانكم المكين عند مولانا الإمام المقدس المرحوم، من الاعتبار المشهور، ومن جميل الإيثار المعلوم؛ ما زلنا في ذلك على عهد والدنا الإمام، وفي الإعتناء بكل ما يكون لكم بهذا الجنب الكريم من الأغراض، وقضائه⁽³⁾ على أحسن مراد، وأجمل اعتياد. وإن وسائلكم⁽⁴⁾ عندنا في كل حال مرعية، وأغراضكم لدينا كما كانت مع والدنا مقضية. ثم مما نقره لديكم، ونقدم به التعريف إليكم، إعلامكم بحقيقة ما كانت عليه أحوال أخينا المقتول⁽⁵⁾ مع ولده، الذي هو الآن بجهة القصر⁽⁶⁾. وهو أن أخانا المذكور لما كتب الله عليه ما كتب، من بعض العقوق، الذي كان عليه لوالدنا المرحوم، ابتلاه الله هو عقوبة على ذلك بعقوق ولده له، فعظم بسبب ذلك

(1) في الأصل المطبوع: قريب.

(2) في الأصل المطبوع: أن.

(3) في الأصل المطبوع: وقضايه.

(4) في الأصل المطبوع: وسائلكم.

(5) هو مولاي أبو عبد الله المأمون المعروف بالشيخ. كان ولي عهد والده الشيخ المنصور الذهبي. لكن علماء فاس وأعيانها لم يبايعوه عقب وفاة أبيه بل بايعوا أخاه الأمير زيدان، في حين بايع أهل مراكش أخاه الآخر أبا فارس، ونشبت بينهم حروب أهلية، انتصر فيها المأمون الشيخ، لكن سرعان ما عاد الأمير زيدان وانتصر عليهما واستولى على الملك، ففرّ أخوه المأمون الشيخ إلى أسبانيا ليستعين بملكها فيليب الثالث. وحين عاد إلى المغرب ونزل بجهة القصر الكبير تصدّى له بعض زعماء قبيلة غمارة وقتلوه قرب تطوان عام 1022هـ/1613م، وانتهى بذلك أمره.

(6) Alcázar القصر الكبير مدينة مغربية في إقليم تطوان. أسسها العرب عام 720م وازدهرت في عهد الموحدين. وأنشئ فيها أسوار ومدارس استمرت من القرن السادس عشر. فشل البرتغاليون في الاستيلاء عليها وأصبحت مقراً للمجاهدين ثم للقائد غيلان حتى استولى عليها الأشراف السعديون عام 1673. الروض المعطار 476، الاستبصار 138.

الجفاء التام بينهما حتى تجاوز الحد، وصار أمرهما إلى العداوة والقطيعة التي لا يرجى لفتقها رتق، فانقطع أخونا بجهة الفحص⁽¹⁾، وانقطع ولده بجهة فاس⁽²⁾، وكان قد قتل عمه⁽³⁾ شقيق أبيه غدرًا، وقتل أخاه هو أيضًا، فاتقاه لذلك أخونا والده، فانكمش عن فاس حذارًا من ولده المذكور، فتلبث بمكانه حتى قتل فيه، وقد ترك أولادًا آخرين غير هذا المذكور، صغارًا وكبارًا، ذكورًا وإناثًا ونساءً أزواجًا له، وكل واحد من هؤلاء الأولاد الذكور والإناث، ومن النساء الأزواج، له حق معلوم في ماله، على نحو ما فرضه الله لكل واحد منهم في ديننا بالإرث. ولا يحل في شريعتنا لأحد من الورثة أن يأخذ إلاّ حقه الخاص به، من بين الورثة لا غير. وبحسب هذا نؤكد على مكانكم المكين أن تقفوا في مسألة ذلكم الحال الذي ترك أخونا في طنجة⁽⁴⁾ يبقى مثقفًا محفوظًا، حتى يفرق على فرائض⁽⁵⁾ الله لأولاده كافة ونسائه⁽⁶⁾، ويتصل

(1) من نواحي القيروان بتونس، يقال لها فحص القيروان أو المزاق. الروض المعطار 542، علماء أفريقية 30، رياض النفوس 99/1.

(2) مدينة مغربية على وادي فاس من روافد نهر سيبو، سكانها حوالي مليون نسمة اليوم، وهي قسمان: فاس البالي أسسها أدريس الثاني عام 809م وفاس الجديد بناها يعقوب بن عبد الحق المريني عام 1276م. تعتبر من المراكز الدينية والثقافية الهامة، وكانت عاصمة لعدة ممالك إسلامية حتى القرن السابع عشر. حكمها السعديون والوطاسيون وازدهرت مع المرابطين والموحدين والمرينيين. فيها الكثير من الآثار والمساجد الهامة والمدارس وغيرها؛ الروض المعطار 434، البكري 115، صبح الأعشى 154/5، ابن الوردي 14.

(3) هو عبد الملك بن زيدان بن أحمد المنصور، أبو مروان السعدي. توفي عام 1040هـ/ 1631م. من ملوك دولة الأشراف السعديين بمراكش. ثار عليه أخواه بعدما بويع له عام 1037هـ إثر مقتل أبيه، فهزمهما لكنه سرعان ما وقع في أيدي بعض المارقين نتيجة إغراء أخيه الوليد فمات قتلاً؛ نزهة الحادي 218، الاستقصا 131/3.

(4) مدينة مغربية على مضيق جبل طارق، سكانها حوالي نصف مليون اليوم. واعتبرت منطقة دولية بين عام 1923 و1956. وهي مرفأً تجاري حرّ منذ عام 1962. الروض المعطار 395، الاستبصار 138، ابن الوردي 14.

(5) في الأصل المطبوع: فرايض.

(6) في الأصل المطبوع: نساية.

إن شاء كل ذي حق بحقه، وأن تحترسوا غاية الاحتراس من جعل السبيل لولد أخينا إلى الاتصال بشيء من ذلك يستبد به، ويغصب فيه إخوته وأخواته ونساء أبيه، ويضيع حقهم وأمانة والدهم تحت حكمكم في بلادكم، وقد علمتم أن هذا مما لا يرضاه الملوك لأحسابهم في كل دين، فنؤكد على مكانكم أن تأخذوا بغاية الاحتياط على ذلك المال من جانب ابن أخينا، كيلا يحتال على اختلاس شيء من الأمر من جهة سلطانكم أو نحو ذلك. وهذا أؤكد ما نؤكد به عليكم، وقد وجب الكتب إليكم، في رابع عشر المحرم الحرام عام ثلاثة وعشرين بعد الألف».

* * *

الرسالة الثالثة⁽¹⁾: «عن الأمير العلي الإمامي المحمدي الشيعي الحسيني الناصري، أيده الله بعزیز نصره، وأمدّه بمعونته ويسره، وخلّد جميل ذكره وفخره. صدر هذا المکتوب، العلي الامامي السلطاني المحمدي الشيعي الحسيني، عن الأمير العلي النجدي، الكريم الذي دانت بطاعته الممالك الإسلامية⁽²⁾، وانقادت لدعوته الشريفة سائر⁽³⁾ الأقطار المغربية، وخضعت لأوامره جبابرة الملوك السودانية وأقطارها القاصية والدانية. إلى المكانة الجليلة المقدار، والأصالة السامية العلم والمنار، والحوزة الرفيعة التي لها في الأقطار المسيحية تمام الصيت والإيثار، مكانة السلطان الجليل، الأصيل المثل، الأمثل الذي له المنزلة الشامخة، وقدم في رئاسة سلطة الأوائل⁽⁴⁾ راسخة، السلطان دون فيليب دُستري الرابع، سلطان سبانس الأثبان⁽⁵⁾ والهند وغيرهم.

أما بعد حمد الله الذي جعل من ملوك الأرض وإن اختلفت في الأديان وصلة

(1) رقم الرسالة/ الوثيقة 2667 سيمانقا.

(2) في الأصل المطبوع: الإمامية، وهو خطأ وما أثبتناه هو الصواب.

(3) في الأصل المطبوع: ساير.

(4) في الأصل المطبوع: الأوائل.

(5) أي سلطان أسبانيا وأسبان.

تعتبرها باعتبار أحكام السياسة وقوانين الرياسة، الملوك والأمراء والوزراء والأعيان، وتوجب لها الحق في كل ما يدور بينها من المخاطبات والمراسلات التي لها البال والشأن. فكتابتنا هذا إليكم من حضرتنا العلية مراکش المحروسة بالله المحمية، ونصر الله تعالى مشحود البيان حديد اللسان، لله العزة وله الحول والقوة. هذا وإنه وصل لعلّي مقامنا رسول الدوق⁽¹⁾ دي مدينة كاتب سرّه جوان دسلانس والقسيس، فأنزّلناهم منزل الرحب والكرامة، وعاملناهم بجزيل آلائنا ونعمنا، مدة مالهم عندنا من الإقامة، وقابلناهم بالكرام والخير الجسيم، إلى أن صافحناهم من مقامنا العلي منشرحي الصدر. وكان الذي بلغوه إلينا براءات الدوق⁽²⁾ يقرر فيها صفو المحبة والوداد، والبقاء على العهد الذي يرضينا، وخلوص الاعتقاد، وما جبلتم عليه من الانتماء لجانب إيالتنا الشريفة واندماج منكم في الفؤاد، فشكرناه واستجدناه واعتبرنا منه بولائكم وتحققناه. ومن جملة ما كتب لنا عليه وعرفنا به أن السلطانة زوجتكم كتبت إليه على شأن ثلاثة ديار من النصاري⁽³⁾ عندنا بأولادهم لنسرحهم من الأسر، وحين بلوغ كتابه إلينا بادرنا بسراحهم بجميع أولادهم، وزدنا عليهم أسارى آخرين، فكانت جملة من الأسارى سرحناها كلها، ونهايتها أربعة وعشرون نصرانياً، ووجهناهم صحبة خديمتنا الأنجب الأحفى الأوجه الأرضى، القائد⁽⁴⁾ محمد بن القائد مسعود التنسلي بن القائد منصور⁽⁵⁾، ليلبغهم إلى مكانكم المكين، وليقرر لكم ما صنع الدوق من الخير مع خدامنا الذي بقصبة سلا⁽⁶⁾ أمنها الله، وما عاملهم بها من الفضل. وإننا قد أمرنا خدامنا الذين بقصبة سلا بدفع

(1) في الأصل المطبوع: الذك.

(2) في الأصل المطبوع: الذك.

(3) في الأصل المطبوع: النصارا.

(4) في الأصل المطبوع: القايد.

(5) من القادة العسكريين الكبار الذين أسندت إليهم مهمة السفارة بين ملوك السعديين وملوك الفرنجة.

(6) مدينة مغربية على البحر، وهي مرفأ هام. سكانها أكثر من مائة ألف نسمة اليوم. تقع على مصب نهر بورقراق قرب الرباط. فيها أسوار قديمة. وتشتهر بالصناعات الحرفية والمطوّزات. الروض المعطار 319، الاستبصار 140.

جميع ما عندهم من الأسارى من بلادكم، فجاؤوا⁽¹⁾ بدفعهم عن آخرهم، قصداً للوفاء بما بيننا وبينكم، ولتعرفوا أن مكانتكم عندنا مكانة ملحوظة، وبرعاية الله ورعايتنا مرعية ومحفوظة، وأغراضكم بمقامنا العلي مقضية وبالقبول مرعية، وذلك قليل في حقكم وفي حق محبتكم. وفي الثاني عشر من جمادى الأولى عام خمسين وألف.

* * *

التحليل والمضمون: تكشف لنا هذه الرسائل - الوثائق عن علاقات هامة قامت بين الممالك الإسلامية في شمال إفريقيا، وتحديدًا المغرب الأقصى، وبين أسبانيا النصرانية، في فترة يمكن اعتبارها حرجة من وجهة نظر التحليل السياسي للأحداث التي كانت تمر بها منطقة شمال أفريقيا خاصة، فالصراع على الحكم بين أبناء البيت الواحد، أي بين أبناء السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي، كان على أشده بحيث أدى إلى ضعف في بنية الدولة وتقهقرها، مما دعاهم للاستعانة بالملوك الأسبان الذين لم يتوانوا يوماً عن اقتناص الفرص الثمينة للانقضاض على المسلمين وإذلالهم، وسلخ المدن والقرى وإلحاقها بالدولة الأسبانية جزاء لما تقدمه من «إعانة ومساعدة» لهؤلاء السلاطين الذين غلبوا المصلحة الشخصية - رغم ما فيها من مخاطر مأسوية انعكست على المسلمين - على المصلحة العامة للبلاد الإسلامية التي كانت تستدعي آنذاك توحيد الجهود وتضافرها للوقوف صفاً واحداً أمام التحديات الخطيرة التي أحدثت ولا زالت تحدث بالممالك الإسلامية في تلك الحقبة.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية كانت الأخبار الواردة من عمق الأندلس المغلوبة وما لقيه أهلها من تعذيب ووحشية وتنصير تصم الآذان وتقطع القلوب، حيث عاش مئات الألوف من الأندلسيين في غمر من الآلام والاستعباد المطبق، تسحقهم مطاردات الكنيسة وديوان التحقيق والتفتيش إلى أن وقع النفي على ما تبقى منهم في أواخر عام 1609، وسحبوا من بيوتهم

(1) في الأصل المطبوع: فجاؤوا.

وقراهم في مناظر مثيرة مؤسسية وسيقوا إلى السفن التي حملتهم إلى الشواطئ المغربية وثغورها.

لذلك يمكن القول إن العلاقات التي سادت اتسمت بطابع الحذر والخوف، وأحياناً العداءة نظراً لما كان يقوم به بعض النبلاء من اعتداءات تنال من كرامة المسلمين حتى في مفاهيمهم، أو في تجاراتهم... وهذا ما تكشفه لنا الرسالة الأولى، مما دفع الأمير مولاي زيدان لكي يتدخل شخصياً عبر رسالته طالباً إنصاف بعض رعاياه المظلومين على أيدي الفيدالغوش (النبلاء).

ونتيجةً للصراع بين الإخوة الأشقاء كما ذكرنا، فرَّ الشيخ أبو عبد الله محمد أخ مولاي زيدان، والمناوىء له على السلطة، إلى أسبانيا بعدما عبر البحر مع أمه الخيزران وأهله وولده عام 1607م، ووطّد علاقته مع ملك أسبانيا فيليب الثالث واستنجد به ضد أخيه الأمير زيدان، لقاء تسليمه ثغر العرائش وتخليه عنه إذا هو نصره. لكن إرادة الشعب المسلم الذي كافح ضد الأسبان، انتصرت ضد الحقد والشرّ وهزمت الشيخ بعدما تخلت عنه وقتلته قرب تطوان منهية بذلك صفحة من تاريخ الصراع الدموي. لكن، كان لهذا الشيخ أموال وأراض وضياح خلفها وراءه في بلاد الأسبان وفي المنطقة التي كان يحكمها بالقرب من مراكش، فبعث السلطان زيدان برسالةٍ إلى فيليب الثالث يطلب فيها التحفّظ على أموال وممتلكات أخيه المقتول لكي توزع حسب الشريعة الإسلامية على جميع الورثة الشرعيين، كل بحقه دونبغي أو ظلم. وهذا ما وضحته الرسالة الثانية.

أما الرسالة الثالثة فتحمل من طابع المودة والاحترام المتبادل ما تفرضه العادات الملكية والتقاليد السلطانية من الإكرام والتبجيل، ومحاولة لتحسين العلاقات أكثر فأكثر، فقد استجاب سلطان مراكش لنداء السلطانة زوجة الملك فيليب الرابع ملك أسبانيا بالإفراج عن بعض الأسرى النصاري عند المسلمين، وأرسل رسالته الحارة المفعمّة بالولاء والوفاء والمحبة.

وتمتاز هذه الرسائل بلغة متينة بليغة جزلة بأسلوبها، ولا عجب، فقد عرف

البلاط المغربي في ذلك الوقت هذا النوع من الأسلوب في الكتابة الدبلوماسية، سيما وأن محرّر هذه الرسائل كما تشير كتب التاريخ هو الكاتب الشاعر البليغ المبدع عبد العزيز القشتالي⁽¹⁾ (ت 956هـ/ 1031م) الذي كان وزير القلم الأعلى وكاتب الدولة المنصورية، منذ السلطان أحمد المنصور الذهبي (ت 1012هـ) والد مولاي زيدان، ومن بعده من السلاطين. ولقد استحدث هذا الكاتب أسلوباً جديداً يمتاز ببلاغته، ويكاد يشبه أسلوب الرسائل السلطانية العالية التي امتاز بها بلاط غرناطة والبلاط المريني، أيام ابن الخطيب⁽²⁾، أواسط القرن الثامن الهجري.

مصادر ومراجع الدراسة*

- الإحاطة في أخبار غرناطة، للسان الدين ابن الخطيب، مصر، 1375هـ.
- أزهار الرياض في أخبار عياض، للمقري التلمساني، تحقيق السقا والأبياري وشلبي، (1 - 3)، القاهرة، 39 - 1942.
- الاستبصار في عجائب الأمصار، لمؤلف مجهول، تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958.
- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، لأحمد بن خالد الناصري السلاوي، البيضاء (المغرب)، 1373هـ/ 1954.
- الأعلام، لخير الدين الزركلي، بيروت، 1989.

(1) هو عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم القشتالي، أبو فارس. ولد عام 956هـ/ 1549م وتوفي عام 1031هـ/ 1621م. من قبيلة قشتالة المغربية بفاس. وزير السلطان أحمد وأحد شعراء البلاط المميزين. كانت له غزوات عظيمة، كما له عدة مؤلفات أدبية؛ الأعلام 4/ 26، خلاصة الأثر 2/ 425، البواقيت الثمينة 1/ 222.

(2) هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب. ولد عام 1713هـ/ 1313م وتوفي عام 776هـ/ 1374م. وزير، مؤرخ، أديب نبيل. له مؤلفات عديدة وهامة، وشعر كثير، وكان يلقب بذي الوزارتين القلم والسيف، مات خنقاً في السجن؛ الاستقصا 2/ 132، الدرر الكامنة 3/ 469، تاريخ آداب اللغة العربية 3/ 216.

(*) رتبت أسماء المصادر والمراجع على الكتب وليس الأعلام لورودها في المقالة على هذا النمط.

- بسط الأرض في الطول والعرض، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق خوان قرنيط خينيس، تطوان (المغرب)، 1958.
- البيان المغرب، لابن عذاري المراكشي، تحقيق كولان، ول. بروفسال، ليدن، 1948.
- تاريخ آداب اللغة العربية، لجرجي زيدان، مصر، 13 - 1914.
- تاريخ الأدب الأندلسي، د. إحسان عباس، بيروت، 1970.
- تاريخ الأندلس، ليوسف أشباخ، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1377هـ/ 1958.
- الترجمانة الكبرى، لأبي القاسم الزباني، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، الرباط، 1967.
- تحفة الألباب، لأبي حامد الغرناطي، تحقيق فران، باريس، 1925.
- (كتاب) الجغرافية، المنسوب للزهري، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، 1968.
- الحلة السيرة، لابن الأبار، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، 1963.
- فريدة العجائب، لابن الوردي، مصر، 1962.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي، مصر، 1284هـ.
- خلاصة تاريخ تونس، لحسن حسني عبد الوهاب، تونس، 1373هـ.
- الخلاصة النقية في أمراء أفريقية، لأبي عبد الله محمد الباجي المسعودي، تونس، 1283هـ.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، حيدر آباد، 1945 - 1950.
- رحلة ابن بطوطة، لابن بطوطة، بيروت، 1960.
- الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، 1975.
- رياض النفوس، للمالكي، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، 1951.
- صبح الأعشى، للقلقشندي، مصر، 1331 - 1338هـ.
- صفة جزيرة الأندلس، تحقيق ليثي بروفسال، القاهرة، 1937.
- الصلة، لابن بشكوال، القاهرة، 1955.
- لاروس Larousse du XX^e siècle, Pub. par Paul Auge, Paris
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية، للسان الدين ابن الخطيب، مصر، 1347هـ.
- مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد الثامن عشر، 1974 - 1975.
- مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد التاسع عشر، 1976 - 1978.
- مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد العشرون، 1979 - 1980.
- معجم البلدان، لياقوت الحموي، تحقيق وستفلد، تصوير بيروت بالأوفست.
- معجم ما استعجم، للبكري، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، 45 - 1949.
- المنجد في اللغة والأعلام، بيروت، 1992.
- الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة، 1965.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، القاهرة، 1348هـ - 1375هـ.

- نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى، اعتنى بها ونشرها ليثي بروفنسال، 1342هـ / 1923.
- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، لمحمد الصغير الإفرائي، أنجي، 1888م.
- نصوص عن الأندلس، للعذري، تحقيق د. عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، 1968.
- نهاية الأندلس، لمحمد عبد الله عنان، مصر، 1368هـ / 1949.
- اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة، لمحمد بشير ظافر الأزهرى، مصر، 1324هـ.